منهج البحث الكيفي
والخدمة الاجتماعية العيادية

محمد مسفر القرني*

ملخص: تنامى في الآونة الأخيرة الاهتمام بالمنهج الكيفي في الممارسة المهنية لمهن المساعدة الإنسانية نتيجة لكفاءة أساليب المنهج الكيفي المختلفة وفاعليتها في جمع البيانات وتحليلها وتفسيرها وصولاً إلى إحداث التغيير المرغوب. فأساليب دراسة الحالة، وجماعة التركيز، والنظرية المجذرة، وتحليل المحتوى، هي أساليب كيفية تسعى إلى محاولة الحصول على الفهم المتعمق للمعاني التي تقف خلف الظاهرة الإنسانية. ويشير هذا البحث إلى أن الخصائص المميزة للظاهرة الإنسانية وعلاقة الباحث فكرياً وسلوكياً ونفسياً بها، تتطلب إيجاد أساليب بحثية تتلاءم مع طبيعة أبعاد هذه العلاقة وصولاً إلى تحقيق الموضوعية في دراسة السلوك الإنساني. كما تحاول هذه الدراسة تأكيد أوجه الشبه والاختلاف بين أساليب البحث الكيفي والتكنيكات المهنية التي يستخدمها الاختصاصي الاجتماعي في الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية. ونتائج هذه الدراسة يمكن أن تقدم بديلاً للمعايير التي يستخدمها المنهج الكمي في دراسة الظواهر الإنسانية تكون أكثر صدقاً وثباتاً وذات كفاءة وفاعلية.

المصطلحات الأساسية: المنهج الكيفي، الممارسة المهنية، الخدمة الاجتماعية العيادية، أساليب المنهج الكيفي.

المقدمة:

لقد تنامى في العقدين الماضيين الاهتمام بتطبيق أساليب البحث الكيفي في مجال البحوث الاجتماعية نتيجة لطبيعة الظواهر الاجتماعية التي تتسم بالفردية والتغير المستمر، بالإضافة إلى العلاقة المتميزة التي تربط الباحث وموضوع

* قسم الخدمة الاجتماعية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

الدراسة. وقد يرجع اهتمام الباحثين بمناهج البحث الكيفي إلى قدرتها على فهم طبيعة الظواهر الاجتماعية بصورة عميقة وصادقة لما تتضمنه من وسائل تتيح للباحث القدرة على فهم الواقع الاجتماعي، وتكسبه المهارات اللازمة للإحاطة بأبعاد الظاهرة الاجتماعية. فوسائل مثل المقابلة، وجماعة التركيز، والملاحظة، ودراسة الحالة تمكن الباحث من جمع البيانات وتحليلها وتفسيرها وصولاً إلى صياغة أطر نظرية يمكن أن تفسر الواقع الإنساني.

والمنهج العلمي في العلوم الاجتماعية بشقيه الكمي والكيفي يسعى إلى التوصل لمعارف محققة يمكن الاعتماد عليها في بناء النظريات العلمية المفسرة للظواهر الإنسانية أو في بناء نظريات الممارسة المهنية ومداخلها. ومن هنا فكلا المنهجين يسعى إلى الوصول للمعرفة العلمية.

وعلى الرغم من أهمية مناهج البحث الكمي في البحوث الإنسانية في اعتمادها على البيانات الإحصائية والتحليلات الكمية للوصول إلى تفسيرات يمكن تعميمها في فهم الظواهر الإنسانية، فإن هذه المناهج الكمية تتخذ من منهج العلوم الطبيعية المنهج الأوحد عند البحث في الظواهر الإنسانية دون الأخذ في الاعتبار الخصوصية الفريدة لتلك الظواهر وعلاقة الباحث الاجتماعي بها.

وعلى هذا يأتي المنهج الكيفي بسمات وخصائص فريدة، تأخذ بعين الاعتبار خصائص الظواهر الإنسانية المتسمة بالتغير المستمر والواقع متعدد الجوانب Multiple Reality والسببية الدائرية Circular Causality ليعطي آفاقاً جديدة للباحث لاجتماعي، تمكنه من الاندماج مع الظاهرة الإنسانية والتفاعل معها وصولاً لفهم الواقع الاجتماعي المرتبط بها.

وعلى الرغم من أهمية هذه الخصائص المميزة لمناهج البحث الكيفي، فإن المعارضين لهذه المناهج يرونها تفتقر إلى الموضوعية باعتبارها لا تحقق شروط مناهج العلوم الطبيعية في البحث، المعتمدة على معايير الصدق والثبات وأساليب التحليل الكمي، ويؤكدون في هذا السياق ضرورة أن يقف الباحث موقف الحياد في تناوله لدراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية.

ويشير كثير من المهتمين بالبحث في إشكالية قصور مناهج البحث الكمي عن فهم بعض مفاهيم الفكر الاجتماعي وتفسيرها – كالقضايا المرتبطة بالأيديولوجية والمعاني الذاتية، مثل (Padgett, 1998) و (Berrios and Lucca, 2006) – إلى أن

الاقتصار على أساليب البحث الكمي وتطويع الظواهر الاجتماعية لتواكبها لا يمكن الباحث من قياس الظواهر الاجتماعية وتفسيرها، ولا يتعدى كونه إسقاطاً لمناهج العلوم الطبيعية التي تختلف في خصائصها عن الظواهر الاجتماعية.

والممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية مع الوحدات الصغرى (الفرد – الأسرة – الجماعة) تستخدم البحث العلمي لدعم كفاءة مخرجاتها وفاعليتها من خلال مجموعة من أساليب جمع البيانات كالملاحظة والمقابلة وتحليل المحتوى وجماعات التركيز. وهي بذلك تستخدم الأساليب ذاتها التي يستخدمها البحث الكيفي في عملية جمع البيانات وتحليلها وتفسيرها مع الأخذ في الاعتبار قضايا التنوع (Diversity)، والخصوصية (Uniqueness)، والتعقيد (Complexity)، والثقافة (Culture).

ويشير جولدمان (Goldman, 1989) إلى أن الممارسين في مهن المساعدة الإنسانية يجب عليهم التقليل من الاعتماد على البحث التجريبي والاتجاه نحو أساليب أكثر واقعية في التعامل مع الظواهر الإنسانية مثل دراسة الحالة، والبحث الحقلي (Naturalistic investigation)، وتحليل المحتوى (Content analysis). ويؤكد أن هذه الأساليب تساعد الممارس المهني على تقديم عملية المساعدة بكفاءة وفاعلية؛ حيث إنها تسهم في الفهم المتعمق لأبعاد المشكلات التي يعانيها طالبو المساعدة.

وفي المقابل نجد (Schein, 1987) و (Weiss, 1994) يؤكدان وجود فروق منهجية وتطبيقية بين الممارسة المهنية ومنهج البحث الكيفي. فبينما تتحدد أهداف الممارسة المهنية في تقديم عملية المساعدة (Helping) يهدف البحث الكيفي إلى إثراء المعرفة الإنسانية (Knowledge). وبينما تسعى الممارسة المهنية في نتائجها إلى إحداث التغيير المرغوب (Desirable change) لدى وحدة الدراسة من خلال إعادة التكيف النفسي والاجتماعي، نجد النتيجة النهائية للبحث الكيفي تتركز حول الوصول للعلمية (Scholarship).

وتسعى هذه الدراسة العلمية إلى معرفة أوجه الاتفاق والاختلاف بين الخدمة الاجتماعية العيادية ومناهج البحث الكيفي من خلال تسليط الضوء على الأهداف، والخصائص العامة، وعوامل ابتعاد الباحثين في مجال الخدمة الاجتماعية العيادية عن استخدام أساليب البحث الكيفي، ووسائل تفعيل استخدام مناهج البحث الكيفي في دراسات الخدمة الاجتماعية العيادية.

أهداف الدراسة:

ترمي هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

1 – معرفة الخصائص التي تميز منهج البحث الكيفي عن غيره من مناهج البحث الأخرى.

2 – معرفة خصائص الخدمة الاجتماعية العيادية بوصفها أحد أساليب ممارسة الخدمة الاجتماعية.

3 – تحديد مظاهر الاتفاق والاختلاف بين منهج البحث الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية.

4 – تقديم وسائل عملية يمكن تفعيلها لاستخدام منهج البحث الكيفي في مجال الخدمة الاجتماعية العيادية.

تساؤلات الدراسة:

تسعى الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات التالية:

1 – ما خصائص منهج البحث الكيفي؟

2 – ما خصائص الخدمة الاجتماعية العيادية؟

3 – ما مظاهر الاتفاق والاختلاف بين منهج البحث الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية؟

4 – ما عوامل ابتعاد ممارسي الخدمة الاجتماعية العيادية عن مناهج البحث الكيفي في البحث العلمي؟

5 – ما وسائل تفعيل استخدام منهج البحث الكيفي في دراسات الخدمة الاجتماعية العيادية؟

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها واحدة من الدراسات العلمية القليلة – بحسب علم الباحث – التي تناولت العلاقة بين مناهج البحث الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية. وعلى الرغم من أهمية إيجاد تلك العلاقة للممارسين للعمل الاجتماعي أو الباحثين فيه، فإن هناك اتجاهاً من الممارسين للخدمة الاجتماعية العيادية نحو استخدام مناهج البحث الكمي في الدراسات والأبحاث. ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة في كونها تسلط الضوء على ضرورة استخدام مناهج البحث الكيفي بأساليبه المختلفة في تطوير الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية العيادية.

ومن أهمية هذه الدراسة أنها تسهم في مساعدة ممارسي الخدمة الاجتماعية العيادية على استخدام مناهج البحث الكيفي بدلاً من مناهج البحث الكمي في إجراء البحوث التطبيقية نظراً لطبيعة الظواهر الإنسانية المتسمة بالتفرد والتغير المستمر والنسبية.

ومن أهمية هذه الدراسة أيضاً إثراء المكتبة العربية بالدراسات النظرية التي تسعى إلى إيجاد العلاقة بين الخدمة الاجتماعية العيادية ومناهج البحث الكيفي وصولاً نحو تطوير مهن المساعدة الإنسانية.

منهج الدراسة:

للإجابة عن أهداف الدراسة لجأ الباحث إلى استخدام أسلوب تحليل المحتوى القائم على استنباط المعلومات وتحليلها وتفسيرها من المصادر الأساسية والدراسات المتخصصة في موضوع البحث. وعلى الرغم من ارتباط هذا الأسلوب بمناهج البحث الكيفي، فإن هناك مستويين في تطبيقه، الأول: وهو المستوى الوصفي الذي يقتصر على وصف المضمون الظاهر الصريح للمادة الإعلامية وفقاً لفئات التحليل ووحداته. والثاني: وهو الذي يمتد إلى استخدام النتائج التي توصل إليها – عن طريق عملية التحليل – بعد ربطها بالبيانات والمعلومات والمتغيرات البحثية الأخرى في كشف النوايا الخفية للمضمون والتنبؤ بالاستجابات المستهدفة.

وعلى هذا، فالدراسة الحالية هي دراسة نظرية تعتمد على ما توافر للباحث من مصادر علمية حول الخدمة الاجتماعية العيادية ومنهج البحث الكيفي بهدف وصفها وتحليلها للإجابة عن تساؤلات الدراسة وأهدافها.

منهج البحث الكيفي (Qualitative Research Methodology):

يعد المنهج الكيفي أحد أنواع البحوث التي يلجأ إليها للحصول على فهم متعمق ووصف شمولي للظاهرة الإنسانية. ويمكن تحديد مفهوم البحث الكيفي بأنه البحث عن الطبيعة الجوهرية للظواهر كما هي في الواقع (إبراهيم رجب، 2003). ومن هنا، فالبحث الكيفي يستند إلى البعد الذاتي للخبرة الإنسانية التي هي دائمة التغيير وفقاً لمعطيات الزمان والمكان. فالباحث من خلال هذا المنهج لا يستطيع تحييد ذاتية المهنية؛ فهو جزء من الظاهرة المدروسة يؤثر فيها ويتأثر بها.

وفي هذا الصدد يشير ماكس فيبر، وهو أحد علماء الاجتماع، إلى أن فهم سلوك الأفراد والجماعات يتطلب من الباحث فهم رؤية المبحوثين وقيمهم واتجاهاتهم التي

يتبنونها، وهو ما سماه بالفهم التعاطفي (Nachmias and Nachmias,1992). وهذا الفهم – كما يشير – يتضمن أن هناك جوانب متعددة لفهم الظاهرة الإنسانية قد لا يمكننا البحث الكمي من خلال الأرقام والإحصائيات من فهمها والوقوف على طبيعتها والإلمام بمختلف أبعادها، في حين يمكننا في المقابل البحث الكيفي من الاندماج مع الظاهرة الإنسانية والتعايش معها وصولاً إلى الفهم المتعمق لها (Riessman, 1994).

وإذا كان المنهج الكمي يسعى إلى التنبؤ واختبار الفروض وتطبيق النظرية على الواقع، فإن المنهج الكيفي لا يقتصر دوره على مجرد وصف الظاهرة، بل يتعدى ذلك إلى بناء النظريات العلمية من خلال المشاهدات والخبرات التي يعيشها الباحث في دراسته.

وترجع الأصول التاريخية لنشأة المنهج الكيفي إلى إسهامات علوم الأنثروبولوجيا (Anthropology)، والإثنوجرافيا (Ethnography)، والأثولوجيا البشرية (Human Ethology)، والنظرية المجذرة (Grounded Theory) التي على الرغم من اختلاف بؤر اهتمام كل منها، فإنها – في مجملها – تعنى بملاحظة الباحث للظاهرة وتسجيله لها عبر فترة زمنية طويلة (خالد حجر، 2003). فالعلم الأنثروبولوجي يدرس الإنسان بوصفه كينونة قابلة للمعرفة والإدراك. وهذا معناه أن الكائن البشري يمكن تحديده بيولوجياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً وسياسياً. ومن هنا فالأنثروبولوجيا تدرس وتحلل وتفسر جوانب كينونة الإنسان على أساس نزعات ومذاهب منهجية مثل القول بالانثروبولوجيا الاجتماعية التي تختص بالبناء الاجتماعي، والأنثروبولوجيا الثقافية التي تخصصت بثقافة الإنسان، والأنثروبولوجيا السياسية التي جعلت من نشاط الإنسان السياسي حقلاً لها، تتناوله بالدرس والتحليل بحثاً عن النسق السياسي في المجتمعات.

وعلم الإثنوجرافيا Ethnographic، هو العلم الذي يولي اهتمامه بالحضارة على مختلف أبعادها وأنشطتها من تقنيات سائدة، وموروثات وعادات متأصلة؛ أي كل ما يتصل بما هو سائد داخل أي كيان أو حقل يعن للباحث دراسته. وتسعى الإثنوجرافيا إلى تشريح الحياة اليومية للمجتمع المحلي فتتبين معانيها وأنماطها وكل ما يتعلق بها، مستخدمة وسائل بحثية متنوعة خلال فترة زمنية مناسبة يندمج خلالها الباحث في الحياة اليومية للجماعة المدروسة (خالد حجر، 2003). ويشير Haviland (1994) إلى أن الإثنوجرافيا هي الوصف المنظم للثقافة الإنسانية

المشتقة من الملاحظة الأولية، أي هو الاتجاه الذي يهتم بالوصف للثقافات الإنسانية. وقد اختلف الإثنوجرافيون في كيفية دراسة الثقافة الإنسانية؛ فمنهم من تناولها من الجانب المادي الوضعي (White,1959)، و (Singer, 1989)، ومنهم من ركز على الجانب الإيديولوجي للثقافة كالبنيويين (Levi-Strauss, 1963).

ويشير يعقوب الكندري (2006) إلى ضرورة التمييز بين البحث الوصفي والبحث الإثنوجرافي. فالأول يعتمد على دراسة الظواهر الاجتماعية كما هي بالواقع من خلال تقديم وصف دقيق ومعبر عنه كمياً وكيفياً، أما الآخر فإنه ارتبط في واقعه بأداة بحثية تمثلت في أداة الملاحظة بالمشاركة. ويضيف رجاء أبو علام (1999) أن هذه الأداة البحثية امتدت تطبيقاتها إلى كثير من مجالات العلوم التربوية والاجتماعية والإنسانية نتيجة لعدم الارتياح للطرق التقليدية في بحث الظواهر الإنسانية؛ وذلك لما يترتب على استخدامها من فهم أعمق وتحليل أشمل لتلك الظواهر.

والإثولوجيا البشرية تهتم بالجانب العضوي للسلوك الإنساني من خلال دراسته في إطاره الطبيعي عبر مرحلة زمنية محددة من خلال تسجيل الأنماط المتعاقبة للسلوك الثابت سعياً للوصول إلى قاعدة عامة حول السلوك والتفاعل الإنساني (خالد حجر، 2003). وقد تطور هذا العلم عن طريق (Lorenz, 1966) و (Tinbergen, 1951) عالمي الإثولوجيا الحيوانية. واهتم علم النفس البيئي بدراسة السلوك الإنساني والاستفادة من نظرية التطور الارتقائي لداروين في دراسة طبيعة الأنماط السلوكية وتطورها. وبينما يركز الإثولوجيون على دراسة السلوك ذاته، يهتم علماء النفس البيئي بالسلوك والوسط البيئي من حوله الذي يتم فيه.

وفي محاولة من رواد المنهج الكيفي للخروج من دائرة الافتراضات المسبقة والتساؤلات البحثية المرتبطة بها، والتي تعتبر من أساسيات المنهج الكمي، برز منهج النظرية المجذرة التي تمتد جذورها الفلسفية من المنهج الفنومنولوجي (Phenomenology)، وتسعى لبناء نظرية صادقة تصاغ بأسلوب استقرائي من تلك الظواهر المقصودة بالدراسة (خالد حجر، 2003). وقد قام كل من Glasser وStrauss في عام 1967م بتطوير هذه النظرية، ففتحت آفاقاً جديدة للبحث العلمي في مختلف فروع المعرفة العلمية، ومن ضمنها الخدمة الاجتماعية. وجوهر هذه النظرية يعتمد على الجمع والتحليل المنظم للبيانات لدراسة ظاهرة ما، ثم صياغة نظرية من خلال ذلك، مما يعني وجود علاقة تبادلية بين عملية جمع البيانات وتحليلها وعملية بناء النظرية.

وفي هذا الاتجاه تشير Padgett (1998) إلى أهمية إسهامات كل من Glasser وStrauss خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي في تطوير المنهج الكيفي من خلال تطويرهما للنظرية المجذرة، بالإضافة إلى إسهامات كل من Lincoln وGuba خلال فترة الثمانينيات والتسعينيات في تأصيل المنهج الكيفي. كما تشير إلى نشأة المنظور البنائي (Constructionist perspective) الذي يتناول الظاهرة الإنسانية من خلال الواقع المتعدد الجوانب (Multiple reality) المرتبط بها من خلال أعمال Denzin (1978) في علم الاجتماع، و (Guba and Lincoln, 1985) في التربية.

ومما تقدم يتضح أن أساليب البحث الكيفي ترى أن السلوك الإنساني مرتبط بمضمون خاص تاريخي واجتماعي وزماني وثقافي، ولذلك فإن التفسير المرتبط بالاستدلال – كما في البحوث الكمية – لا يقدم فهماً متعمقاً وتحليلاً واقعياً لذلك السلوك. فالبحث الكيفي يسعى إلى تفسير الظواهر الإنسانية من خلال استقراء الواقع بجوانبه المتعددة المحيطة بذلك وصولاً لتصوير النمط المعقد لما يدرس بعمق وتفصيل في: بناء النماذج من خلال تحليل الأجزاء المكونة لها وتركيبها، وتفسير المعنى الاجتماعي للأحداث، وتحليل العلاقات بين الأحداث والعوامل الخارجية (يعقوب الكندري، 2006).

خصائص البحث الكيفي:

هناك بعض المظاهر التي يتميز بها البحث الكيفي عن البحث الكمي من حيث: طبيعة النظر للظواهر الإنسانية، والأسلوب المستخدم لجمع البيانات، ودور القيم في البحث والاستقصاء، ودور الباحث. ويمكن استعراض بعض من خصائص البحث الكيفي فيما يلي:

1 – **التفكير الاستقرائي (Inductive Thinking):** تنطلق البحوث الكيفية من منطلق منهجي يفترض أن الظاهرة الإنسانية ظاهرة متغيرة ونسبية، وهذا يتطلب فهمها في السياق الذي تحدث فيه والواقع المرتبط بها. ومن هنا يجب البدء من الجزئيات المتكونة من الملاحظة بالمشاركة (Participant Observation) والمعايشة للواقع كما هو، وصولاً إلى أنماط من التفسير والتحليل لإيجاد العلاقات (Pattern)، ثم من ذلك استنتاج فروض مبدئية (Tentative Hypotheses)، وأخيراً الوصول إلى نظريات (Theory) يمكنها تفسير الظاهرة المدروسة (شكل 1).

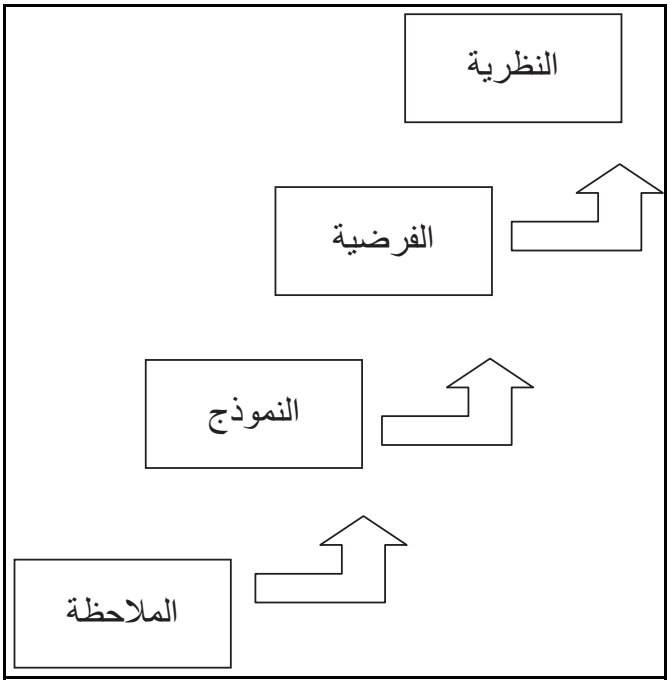

شكل (1): التفكير الاستقرائي (Inductive)

2 – الأداة الإنسانية (Researcher as Instrument of data Collection): إن الباحث في البحوث الكيفية هو أداة جمع البيانات. فهو يلاحظ ويشارك ويسجل ميدانياً، ويقوم بتحليل ذلك وتفسيره، والوصول إلى المعاني الكامنة خلف الظاهرة المدروسة. وعلى هذا، فالباحث في البحث الكيفي في اعتماده على المقابلة الشخصية والملاحظة غير المحددة وتحليل الوثائق ينغمس مع وحدة الدراسة ويتفاعل ويتحد معها سعياً إلى الفهم المتعمق والتفسير الواقعي لكيفية حدوثها والكشف عن قوانينها الداخلية المتشابكة والمعقدة بوعي وإدراك. ويرى المعارضون للمنهج الكيفي أن انغماس الباحث وعدم حياديته يضعف جانب الموضوعية، فالباحث لا يستطيع عزل ما يؤثر عليه في أثناء تناوله لدراسة الظاهرة، ومن ثم تتدخل أحكامه القيمية ومشاعره وتعبيراته على تفسيره وتحليله للظاهرة المدروسة.

3 – يعتمد على الملاحظة المباشرة والمعايشة الطبيعية (Naturalistic; in vivo): يعتمد المنهج الكيفي على قدرة الباحث على ملاحظة الأحداث وتسجيلها كما هي في الواقع وفهم المبحوثين لها وتفاعلهم معها والخبرات التي يشكلها كل من الباحث والمبحوثين حولها. وفي هذا نجد أن هناك مناهج بحثية برزت مثل البحث

بالمشاركة (Participative Research)، والمنهجية الخبراتية (Experiential Methodology)، والبحث الحواري (Dialogical Research). وهذه المناهج البحثية في جوهرها تنظر إلى الجوانب الداخلية للخبرات الإنسانية الذاتية توصلاً إلى تعميمات موضوعية (إبراهيم رجب، 2003). إن معايشة الباحث للظاهرة المدروسة تمنحه قدرة على تقديم وصف دقيق وفهم متعمق لكيفية حدوثها في سياق الإطار الثقافي والاجتماعي والسياسي المرتبط بها. كما أن هذه الخاصية لمنهج البحث الكيفي تعطي المبحوثين مجالاً للتعبير عن خبراتهم الإنسانية وفهمهم لأنماط سلوكهم، وفي هذا يؤكد دونالد فورد "أن الناس عناصر فاعلة محدثة لأفعالها" (نقلاً عن إبراهيم رجب، 2003).

4 – يتسم بالمرونة البحثية في التعامل مع الظاهرة (Uncontrolled conditions): لا يفرض البحث الكيفي قيوداً على الباحث متمثلة في منطلقات نظرية، وافتراضات مبدئية، وتساؤلات بحثية، وأدوات بحثية مقننة. وعلى هذا، فالبحث الكيفي لا يسعى إلى إيجاد علاقات بين متغيرات محددة مسبقاً، بل إنه يدرس الظاهرة الإنسانية بشكل كلي وبأسلوب يتسم بالمرونة البحثية التي تتيح للباحث مقدرة على التعامل مع الأحداث وفقاً لما يتطلبه الموقف محل الدراسة. ومن هنا يشير يعقوب الكندري (2006) إلى أن الباحثين في الدراسات الكيفية نادراً ما يضعون تصميماً تفصيلياً لكل جوانب البحث قبل بدء الدراسة، ولكن التصميم يتغير كلما ظهرت الدراسة للعيان. وعلى هذا يعدل الباحثون إجراءاتهم وطرقهم طبقاً للمادة التي يجمعونها. ويرجع السبب في ذلك إلى أن البيانات التي تجمع تتوقف على التفاعل بين الباحث والمبحوثين والموقف.

5 – الموضوعية (Objectivity): تعرض البحث الكيفي لانتقادات كثيرة يدور معظمها على انتفاء خاصية الموضوعية عنه نتيجة لغياب تقنيات البحث العلمي الوضعي المتمثلة في الصدق والثبات. وهذا ما حدا برواد المنهج الكمي إلى اتهام البحث الكيفي بالخلل المنهجي وضعف الصرامة العلمية (خالج حجر، 2003)، ويعزون ذلك إلى انغماس الباحث في بحثه بكل مشاعره وأحاسيسه وتأملاته واعتباره هو ذاته الأداة البحثية لجمع البيانات. لكن الباحثين في الدراسات الكيفية يتبعون إجراءات عديدة لتأصيل الموضوعية والتأكد من البيانات التي يجمعونها، ومنها: الارتباط الزمني الممتد في الموقع، الملاحظة المستمرة فيه، الحصول على ملاحظات كافية ذات عمق كبير، ومنها المثلثة (Triangulation)، ويقصد بها استخدام مصادر متعددة للبيانات، وملاحظين متعددين، وطرق متعددة.

خصائص الخدمة الاجتماعية العيادية:

تعتبر الخدمة الاجتماعية العيادية (Clinical Social Work) أحد مستويي الممارسة المهنية التي تعنى بالعمل مع الوحدات الصغرى (الفرد – الأسرة – الجماعة)، ويطلق عليها في المجتمعات الغربية (Micro-level Practice). ومضمون هذه الممارسة تقديم الخدمات الوقائية والعلاجية للأفراد والأسر والجماعات في المؤسسات المختلفة من خلال تطبيق مبادئ الممارسة المهنية وعملياتها وأساليبها.

وعلى هذا، فالخدمة الاجتماعية العيادية هي مجموعة من الجهود المشتركة مع طالبي المساعدة من أجل مساعدتهم على التكيف النفسي والاجتماعي مع ذواتهم ومع البيئة التي يوجدون بها. ويتحقق ذلك عبر مجموعة من الأساليب العلاجية، لكل منها مهارات مهنية يمارسها الاختصاصي الاجتماعي لتقديم عملية المساعدة بكفاءة وفاعلية.

وفي هذا نرى (Goldstein, 1980) يعرف الخدمة الاجتماعية العيادية بأنها أحد أدوار الممارسة التي يسعى من خلالها الاختصاصيون الاجتماعيون إلى مساعدة الأفراد المتضررين أو الذين تضعهم سلوكياتهم في مواقف صعبة، أو لمساعدة هؤلاء الذين يرغبون في حياة منتجة تخلو من الاضطرابات النفسية والسلوكية. ووفقاً لهذا التعريف فإن الهدف النهائي للخدمة الاجتماعية يتحدد في إحداث تغيير مقصود في نسق العميل والبيئة المحيطة.

ويرى كثير من الاختصاصيين الاجتماعيين أن الخدمة الاجتماعية العيادية تهدف إلى إحداث تغييرات تحقق التوافق الشخصي، ومن ثم، فإنها تتناول مشكلات كالاضطرابات الانفعالية والأمراض العقلية، وعدم التكيف الاجتماعي المتمثل في الضغوط النفسية والاجتماعية (حمدي منصور، 2003).

لقد حاول كثير من رواد الخدمة الاجتماعية العيادية تقديم تصور لطبيعة الممارسة، فنجد (Schwartz, 1961) يفترض أن الممارسة المهنية تهدف إلى تسوية رغبات الأفراد مع المصادر المتوافرة في البيئة. ويرى (Gordon, 1969) أن الممارسة المهنية هي مقابلة احتياجات الأفراد باحتياجات البيئة. ويرى (Bartlett, 1970) أن الممارسة تعني إحداث التوازن بين قدرات الأفراد على التكيف والمتطلبات البيئية، ويرى كل من (Baer and Federico, 1978) أن الممارسة المهنية تعني ربط الأفراد بمؤسسات تقديم الخدمة.

وعلى الرغم من تعدد المنطلقات النظرية لهذه الطروحات المقدمة، فإنها، في جوهرها، لا تتعدى تأكيداً لمفهوم دراسة الإنسان في بيئته (Person - in - Environment) أو دراسة الإنسان في الموقف (Person-in-Situation). وهذا يتضمن فهماً متعمقاً وتفسيراً شاملاً لوحدة الدراسة والبيئة التي تحيط بها وصولاً إلى تقديم عملية المساعدة بكفاءة وفاعلية.

وفي هذا يشير (Compton and Galaway, 1994) إلى أن كل الأساليب العلاجية المنبثقة عن هذا التصور حاولت إلغاء أحادية التركيز على الأفراد أو على البيئة من خلال تسليط الضوء على الاثنين معاً في تقديم عملية المساعدة.

ويشير (حمدي منصور، 2003) إلى أن هناك أربعة افتراضات أساسية تعتمد عليها الخدمة الاجتماعية العيادية، هي:

1 – إن نضج الأفراد ونموهم وسلوكهم يعتمد على ذلك التفاعل المعقد الذي ينشأ بينهم وبين بيئاتهم الداخلية والخارجية.

2 – يتعرض الأفراد لسلسلة من الضغوط المعقدة التي تؤثر على تكيفهم النفسي والاجتماعي.

3 – يتفاوت الأفراد في مدى استجاباتهم للضغوط البيئية، فيعجز البعض عن تحقيق الاستجابة المناسبة.

4 – عندما يتأثر الأداء الاجتماعي للأفراد بتلك الضغوط تبرز أهمية التدخل المهني لاستعادة التوازن في الأداء الاجتماعي.

وبالنظر إلى هذه الافتراضات يمكن ملاحظة أن الخدمة الاجتماعية العيادية تسعى إلى إحداث التغيير المرغوب وفقاً لركيزتين: الأولى تتعلق بدراسة التفاعل بين الإنسان وبيئته ومدى تأثير كل منهما في الآخر، والثانية تتعلق بضرورة التمييز بين الأفراد في استجاباتهم والأخذ بمبدأ الفروق الفردية بينهم عند عملية التدخل المهني.

وإذا كانت الصعوبة حاضرة في بلورة رؤية واضحة عن مفهوم الخدمة الاجتماعية العيادية نتيجة لتعدد اهتماماتها وتداخل مفاهيمها مع العديد من مهن المساعدة الإنسانية الأخرى كالطب النفسي، وعلم النفس الإكلينيكي، والإرشاد النفسي، فإن محاولة الوقوف على خصائصها جديرة بالبحث. وفيما يلي عرض لبعض تلك الخصائص:

1 – البدء من حيث هو العميل (start where the client is): يشير هذا المبدأ إلى توجيه الاختصاصي الاجتماعي للبدء من حيث اهتمام العميل. فالعميل هو الذي يحدد أهدافه العلاجية، وهو الذي يحدد الأولوية فيما بينها، وهو الذي يشعر بالمشكلة، وهو الأقدر على التعبير عنها. ويصبح دور الاختصاصي الاجتماعي إرشادياً من خلال زيادة استبصار العميل بواقعه. وعلى هذا فالعلاقة بين الطرفين علاقة تبادلية (Reciprocal) تأخذ بعين الاعتبار الاندماج والتعاطف مع العميل وبناء العلاقة المهنية القائمة على الاحترام. وفي البدء من حيث هو العميل يتحقق فهم العميل في السياق النفسي والاجتماعي والثقافي الذي يحيط به. ويشير جلال عبدالخالق (1990) إلى أنه على الرغم من أن العملاء قد يعبرون عن مشكلاتهم بطرق غير موضوعية، فإن إعطاءهم فرصة للتعبير عما يحسون به ويفكرون فيه يلبي بعضاً من احتياجاتهم لتأكيد الذات واكتساب الثقة بالنفس.

2 – النظر للحالة على أنها متفردة ومتميزة عن غيرها (Individualized case): تشير هذه الخاصية إلى اعتبار كل حالة يتعامل معها الاختصاصي الاجتماعي متفردة في خصائصها النفسية والاجتماعية والثقافية والبيئية، بالإضافة إلى خصوصية العوامل المسببة للمشكلات التي تواجهها. وهذه النظرة المتميزة لكل حالة تؤدي إلى الفهم المتعمق للحالة والإلمام بمختلف جوانبها، كما تقدم تفسيراً ينسجم مع السياق الاجتماعي والثقافي للوسط الذي يحيط بالحالة ودرجة تأثير كل منها في الآخر. والتفسير هنا يتضمن مساعدة الأفراد في الربط ما بين أحداث حياتهم وما بين استجاباتهم لتلك الأحداث بطرق التعبير عنها فكرياً وسلوكياً وعاطفياً (حمدي منصور، 2003).

3 – التحقق من البيانات من خلال عملية التأمل (Reflexivity): تشير هذه العملية إلى مهارة الاختصاصي الاجتماعي في تأمل البيانات الصادرة عن العميل وتحليلها وتفسيرها في ضوء مختلف المتغيرات الذاتية والبيئية. وتشير Padgett (1998) إلى أن هذه العملية مستمرة في أثناء عملية المساعدة، وتسهم في زيادة الوعي الذاتي (Self-Awareness) والنقد الذاتي (Self-Correction)، ولكنها في الوقت ذاته ليست بالمهمة السهلة لكل من العميل والاختصاصي الاجتماعي. فبينما يسعى العميل إلى الخروج من الضغوط التي يعانيها من خلال الاختيار بين البدائل المتاحة، يسعى الاختصاصي الاجتماعي إلى تهيئة المناخ الإيجابي لتدفق البيانات من العميل وإيجاد فهم متعمق وتفسير شمولي لتلك البيانات.

4 – الاستجابة للبيانات الجديدة من خلال الانتقائية (Eclectic approach): تشير هذه الخاصية إلى أن الاختصاصي الاجتماعي لا يلتزم نموذجاً علاجياً واحداً في أثناء عملية المساعدة. فالأساليب العلاجية التقليدية كالتحليل النفسي، والعلاج السلوكي الكلاسيكي أثبتت من خلال تعقد المشكلات الإنسانية وتنوعها وتأثير المستجدات الثقافية والاجتماعية كالعولمة، والتنوع الثقافي عدم قدرتها على إحداث التغيير المرغوب؛ نظراً لما تطلبه من وقت طويل لبناء العلاقة المهنية بين العميل والاختصاصي الاجتماعي. وفي هذا يشير (Corey, 1996) إلى أن كثيراً من الممارسين للعلاج النفسي الاجتماعي لا يستخدمون أسلوباً علاجياً واحداً في تقديم عملية المساعدة، بل يستخدمون أكثر من أسلوب علاجي وفقاً لما يتطلبه الموقف واحتياجات العميل. ويؤكد (محمد القرني، عبد المنصف رشوان، 2004) أهمية صياغة أساليب علاجية متطورة تجمع مهارات مهنية مستمدة من أكثر من أسلوب علاجي، وتجربتها في البيئة المحلية للوقوف على كفاءتها في تقديم عملية المساعدة.

5 – عملية المساعدة ليست خالية من القيم (Helping Process is not Value-free): ترتكز عملية المساعدة على قاعدة من المبادئ الأخلاقية التي تقنن عملية التفاعل بين الاختصاصي الاجتماعي والعميل. فالتقبل، والمسؤولية الذاتية، والسرية محددات قيمية توجه عملية المساعدة. ومنذ أن قدمت الرابطة القومية للاختصاصيين الاجتماعيين (NASW) منظومة القيم المهنية في عام 1958م، أصبحت الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية أكثر فاعلية ومصداقية بين مهن المساعدة الإنسانية الأخرى (خيري الجميلي، 2002). وتسعى هذه القيم إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، منها: تحديد القيم والمبادئ التي ترتكز عليها مهنة العمل الاجتماعي، وتحديد الخطوات الإجرائية التي توجه عملية الممارسة، ومساعدة الممارسين في التغلب على المشكلات الأخلاقية حال ظهورها، والتعزيز من مكانة العمل الاجتماعي في المجتمع باعتباره عملاً محاسبياً، واستقطاب الممارسين ذوي الكفاءة للتصدي للعمل الاجتماعي، وتسهيل عملية اكتشاف أي انتهاك للقيم والمبادئ المهنية وكيفية مواجهتها (NASW,1980). إن هذه الأهداف في مضمونها الأخلاقي تمثل إطاراً للعمل المهني يأخذ بعين الاعتبار تقديم عملية المساعدة بكفاءة وفاعلية مع جميع العملاء وفي كل المؤسسات.

التشابه بين المنهج الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية:

من خلال استعراض الخصائص لكل من المنهج الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية يتضح التشابه إلى حد ما. وفي هذا يشير Gilgun (1994) إلى أن العلاقة

بينهما أشبه ما تكون باليد في القفاز "hand in glove fit"، وهو بهذا يشير إلى تطابق أساليب البحث لكل منهما في عملية جمع البيانات. فالخدمة الاجتماعية العيادية عندما تبدأ من حيث هو العميل فإنها تنظر إلى العميل باعتباره جزءاً من السياق البيئي الذي يوجد فيه، وهذا يتطابق مع منهج البحث الكيفي الذي يرتكز على فهم الظواهر الإنسانية في بيئتها الطبيعية.

ومن أوجه الشبه أيضاً المنهجية المتبعة في التفكير البحثي، فكلاهما يتبع المنهجية الاستقرائية التي تعتمد على الاستقصاء الناقد الذي يتيح للباحث أو للممارس إمكانية إيجاد العلاقة بين المتفاعلين والأحداث في العالم الواقعي المعيش وكيفية فهمهم لكل ذلك وصولاً إلى الهدف النهائي، وهو إشباع احتياجاتهم. وهما في استخدامهما للمنهج الاستقرائي يعتمدان على الممارسة التأملية التي تتيح للباحث الكيفي – وأيضا للممارس – استخدام مخرجات أدوات جمع البيانات كالمقابلة والملاحظة في تفسير الواقع وتحليله بصورة متعمقة وشمولية. ويمكن توضيح ذلك بأن البيانات الاجتماعية – سواء للظاهرة الإنسانية أو للمشكلة التي يعانيها العميل – هي أجزاء مبعثرة ومتنوعة، ومهمة الباحث أو الممارس إيجاد العلاقة بين هذه الأجزاء من خلال التأمل الذاتي، والملاحظة المباشرة، والدقة، والمقابلة، والتعايش مع الواقع.

ويؤكد (Gilgun, 1994) أن الطرق الأساسية في عملية جمع البيانات في البحث الكيفي مثل المقابلة المتعمقة (in-depth interviewing)، والملاحظة، ومراجعة السجلات (Document review) هي طرق مستخدمة من قبل الاختصاصيين الاجتماعيين في مجال الخدمة الاجتماعية العيادية. ويضيف أن عملية التسجيل (Process recording)، والتوثيق، وتقرير الحالة (case reporting) تتشابه مع عمليات تحليل البيانات المستخدمة في البحث الكيفي.

ويشير (Weiss, 1994) إلى التشابه الكبير بين المقابلة البحثية في المنهج الكيفي والمقابلة العلاجية في الخدمة الاجتماعية العيادية. ويضيف أن كلتيهما تسعى للحصول على الأفكار والمشاعر والسلوك كما هي في الواقع، وبطريقة لا تتضمن التأثير على المبحوثين أو العملاء في التعبير بحرية عن خبراتهم الشخصية ومدى وعيهم وإدراكهم لأبعادها.

وخلاصة القول إنه يمكن ملاحظة التشابه بين المنهج الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية فيما يلي:

1 – كلاهما يسعى للحصول على الوصف المتعمق (Thick description).

2 – كلاهما يحاول الحصول على الفهم والمعنى (Meaning and understanding).

3 – كلاهما يتخذ من المعايشة أكثر الوسائل دقة في الحصول على البيانات (Engagement).

4 – كلاهما يستخدم التسجيل في عملية جمع البيانات وتحليلها (process recording and data analysis).

الاختلاف بين المنهج الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية:

على الرغم من أوجه التشابه بين المنهج الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية في المنهجية الاستقرائية، وفي أساليب جمع البيانات من خلال الأدوات المختلفة، وفي كيفية تحليل البيانات وتفسيرها فإن هناك اختلافات جوهرية بينهما. لقد حاولت (Padgett, 1998) بعد مراجعة لأعمال عالم النفس (Schein, 1987) وعالم الاجتماع (Weiss, 1994) أن تقدم مجموعة من الاختلافات بين الاثنين، يمكن ملاحظتها في الجدول (1):

جدول (1)
الاختلافات بين المنهج الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية

وجه الاختلاف	الخدمة الاجتماعية العيادية	منهج البحث الكيفي
الإطار النظري	توجه بالنظريات والمداخل العلاجية	تسعى إلى إنشاء أطر نظرية
الأهداف	الهدف النهائي تقديم عملية المساعدة	الهدف النهائي الوصول للمعرفة
العلاقة	العلاقة تبدأ بالعميل وتنتهي بتحسنه	العلاقة تبدأ بالباحث وتنتهي به
الوقت	الوقت مجدول وفقاً لطبيعة الحالة	الوقت غير مجدول
مستوى النجاح	مستوى النجاح يتحقق من خلال تحسن العملاء	مستوى النجاح يتحقق من خلال العمل الدقيق

تنطلق البحوث الكيفية من منطلق منهجي مختلف يرتكز على طبيعة الظاهرة الإنسانية التي تتسم بالنسبية والتغير الدائم وعدم الثبات. ولذلك تتطلب هدفاً مختلفاً في الاستقصاء ومجموعة مختلفة من طرق البحث. وعلى الرغم من أن مناهج البحث الكمي والكيفي تسعى إلى التفسير العلمي الذي يتضمن الكشف عن القوانين التي تحكم السلوك الإنساني في العالم الطبيعي (رجاء أبو علام، 1999)، فإن لكل منهما منهجية مختلفة في كيفية الوصول إلى هذا الهدف.

إن طبيعة الظاهرة الإنسانية أسهمت في صياغة آفاق جديدة للبحث الاجتماعي للتمكن من دراسة هذه الظاهرة كما هي في الواقع. ولهذا كان البحث الكيفي محاولة للخروج عن النمط الكمي في البحث الذي يوجه من خلال الأطر النظرية الجاهزة والتساؤلات البحثية المنبثقة منها.

لقد حاول البحث الكيفي تقديم منهجية بحثية تتخذ من الواقع الطبيعي للظواهر المدروسة مجالاً للتحليل والتفسير من خلال الربط بين الأجزاء للوصول إلى أطر نظرية يمكن لها تفسير وجود الظاهرة في الوقت الحالي وفي المستقبل متى ما تشابهت الظروف. والمنهج الكيفي في اتخاذه هذا المنهج البحثي يرفض المعيارية (Normative) المتمثلة في الانطلاق من معايير مقننة قبل البدء بعملية الاستقصاء وجمع البيانات. فالباحث الكيفي يدخل الميدان دون افتراضات مسبقة أو نظريات علمية توجهه وتحدد خطواته الإجرائية (Riessman, 1994).

وفي مقابل ذلك فإن الخدمة الاجتماعية العيادية تتبع منهجاً معيارياً مستمداً من نظريات علم النفس وعلم النفس الاجتماعي. فمن خلال هذه النظريات طورت العديد من المداخل العلاجية التي تستخدم للتدخل المهني في نسق العميل وفي الأنساق البيئية ذات التأثير في المشكلة المدروسة. وعلى هذا، فالخدمة الاجتماعية العيادية توجه من قبل النظريات والمداخل العلاجية؛ أي أن الاختصاصي الاجتماعي أو المعالج لديه تصور مبدئي عن كيفية التعامل مع المشكلة من خلال معايير محددة. فعلى سبيل المثال، كل مدخل علاجي للممارسة المهنية لديه مهارات محددة وعلى الممارس اكتسابها وتطبيقها مع الحالة، وكل ذلك، والممارس يسعى للوصول بالعميل لمستوى مقبول من الصحة العقلية والنفسية والتوافق النفسي والاجتماعي مع ذاته ومع البيئة التي يعيش بها.

وفيما يتعلق بالأهداف العامة فإن البحث الكيفي يهدف إلى تنمية المعرفة

العلمية من خلال جمع البيانات وصياغتها في شكل فروض وصولاً إلى صياغة نظريات علمية. وفي هذا يشير (رجاء أبو علام، 1999) إلى أن الباحث يسعى للوصول إلى نظرية أساسية حول الظواهر التي يدرسها؛ بحيث ترتبط النظرية بشكل جذري بهذه الظواهر وتكون نابعة من البيانات المرتبطة بها.

وفي المقابل، فإن الهدف العام للخدمة الاجتماعية العيادية يرتكز على تقديم عملية المساعدة لوحدة الدراسة (الفرد – الأسرة – الجماعة) من خلال إحداث التغيير المرغوب جزئياً أو كلياً في الأنساق الاجتماعية. وعملية المساعدة هي خطوات مهنية تحقق أهداف الممارسة المهنية من خلال تقديم خدمات علاجية ووقائية تساعد على استعادة التوافق النفسي والاجتماعي.

وفيما يتعلق بعنصر العلاقة مع الطرف الآخر نجد أن العلاقة بين الباحث الكيفي والمبحوثين تبدأ من الباحث وتنتهي بإرادته. فالباحث يعتبر أداة البحث؛ فهو يتحدث مع الناس في موقف ما، ويلاحظ أنشطتهم، ويقرأ وثائقهم وسجلاتهم المكتوبة، ويسجل هذه البيانات في مذكرات ميدانية (يعقوب الكندري، 2006). والباحث هنا يخضع للمتغيرات المستجدة في أثناء تنفيذ الدراسة ويتكيف معها، كما أن الباحث هو الذي ينهي العلاقة متى ما شعر أن البيانات التي جمعها كافية لتحقيق أهداف البحث.

وفي الخدمة الاجتماعية العيادية، العميل هو الذي يبدأ العلاقة المهنية؛ وذلك يرجع إلى أنه طالب المساعدة، كما يتوقف إنهاء العلاقة على مدى التحسن الذي يطرأ على الحالة. ولا يعني هذا أن يقف الاختصاصي الاجتماعي موقفاً ثانوياً في إنهاء العلاقة المهنية؛ فالاختصاصي الاجتماعي بما لديه من معرفة ومهارة يستطيع أن يوظف ذلك فيما يساعد العميل على تحقيق أهداف عملية المساعدة. ويرى (Biestek, 1957) أن العلاقة في الخدمة الاجتماعية العيادية هي علاقة علاجية (Therapeutic Relationship)، وهي تفاعل دينامي للاتجاهات والمشاعر لكل من المعالج والعميل من أجل تحقيق أهداف عملية المساعدة المتمثلة في تحقيق التكيف مع الذات ومع البيئة المحيطة.

وبالنظر إلى عنصر الوقت، نجد أن الوقت غير مجدول في البحث الكيفي، حيث إن الباحث يجري ملاحظاته ومقابلاته البحثية ولا يكون محكوماً بوقت محدد لإيقاف عملية جمع البيانات، وإنما ذلك يتوقف على مدى الاكتفاء الذي يشعر من خلاله بأنه يحقق له أهداف بحثه (Padgett, 1998).

ويرى (يعقوب الكندري، 2006) أن الباحث الكيفي يبدأ عمله بقضاء فترة من الوقت في تعرف الموقع، بحيث يألف المكان، ويدرس أفراده، ثم يركز بحثه في وضع فروض أو أسئلة مؤقتة تعاد صياغتها باستمرار وفقاً لما يجمع ويحلل ويفسر من بيانات.

وفي الخدمة الاجتماعية العيادية، فإن الوقت مجدول والاختصاصي الاجتماعي يقدم عملية المساعدة من خلال جلسات علاجية محددة الوقت، وتشير (Padgett, 1998) إلى أنها تراوح بين 30 – 50 دقيقة. وعلى الرغم من اختلافات الممارسين للخدمة الاجتماعية العيادية حول الوقت المخصص للجلسة العلاجية نتيجة لتنوع المشكلات الإنسانية، ونوع العملاء، ومدى تحقق الأهداف العلاجية والوقائية، فإن عاملاً مهماً بدأ في التأثير على الوقت المحدد لتقديم عملية المساعدة ألا وهو تأثير شركات التأمين الصحي والدور الذي تمارسه في تقنين عملية تقديم المساعدة (محمد القرني وعبد المنصف رشوان، 2004). فشركات التأمين الصحي باعتبارها الطرف الثالث (Third Party) في عملية تقديم المساعدة بدأت مؤخراً في الدول الغربية على فرض اللوائح والأنظمة المقننة لوقت تقديم عملية المساعدة من خلال تحديد جلسات محددة لكل مشكلة وعلى الاختصاصي الاجتماعي أو المعالج التزام عدد محدد من الجلسات لكل مشكلة.

وفيما يتعلق بعنصر مستوى النجاح والمعايير التي يبنى عليها، نجد أن مستوى النجاح في الخدمة الاجتماعية العيادية يقاس من خلال تحقيق الأهداف العلاجية وتقديم عملية المساعدة بكفاءة وفاعلية. وهناك عدة معايير يمكن قياس مستوى النجاح من خلالها، وهي: قدرة العميل على التكيف النفسي والاجتماعي مع ذاته ومع البيئة المحيطة، مستوى التغير الذي حدث في أفكار العميل ومشاعره وسلوكه، قدرة المؤسسة على تقديم الخدمات التي تشبع احتياجات العملاء، قدرة الممارسين والمعالجين على مساعدة العملاء.

وفي المقابل يتحدد مستوى النجاح في البحث الكيفي من خلال قدرة الباحث على إثراء المعرفة العلمية والوصول إلى أطر نظرية يمكن لها تفسير الظواهر الإنسانية والسلوك الإنساني كما هو في الواقع (Denzin & Lincoin, 2002). وعلى الرغم من ذلك، يجد الباحثون في المنهج الكيفي صعوبة في معرفة معايير النجاح؛ حيث إن مستوى النجاح غير ملموس (Intangible) كما هو الحال في الخدمة

الاجتماعية العيادية. ومن معايير مستوى النجاح: قدرة الباحث على تحقيق الدقة في عملية جمع البيانات من خلال الأدوات البحثية كالمقابلة والملاحظة، وقدرة الباحث على تحقيق شروط الصدق والثبات كالصدق التفسيري (Interpretive Validity) الذي يعني الدقة في تمثيل المعاني للظواهر المدروسة، والصدق الوصفي (Descriptive Validity)، ويعني درجة الدقة في وصف وقائع عن مجتمع الدراسة، وقدرة الباحث على تقديم أطر نظرية قادرة على تفسير الظواهر الإنسانية في المستقبل.

ومما تقدم يتضح وجود فروق بين الخدمة الاجتماعية العيادية والمنهج الكيفي تتركز حول الطبيعة المنهجية لكل منهما أكثر منها حول كيفية الوصول إلى البيانات وتفسيرها وتحليلها. فكل منهما يسعى للوصول إلى البيانات المتعمقة بتعدد مصادر جمع البيانات، حيث إن الوصف المتعمق يعطي كلا من المعالج والباحث الكيفي كمية من البيانات تمكنه من الوصول إلى المعاني الكامنة خلف وجود الظاهرة الإنسانية أو السلوك الإنساني.

عوامل ابتعاد ممارسي الخدمة الاجتماعية العيادية عن مناهج البحث الكيفي في البحث العلمي:

تشير معظم الدراسات إلى العزوف عن استخدام أساليب البحث الكيفي في البحوث المتعلقة بالخدمة الاجتماعية العيادية. وعلى الرغم من الاعتماد على تلك الأساليب في نشأة بعض من نظريات الممارسة المهنية، فإن عدد الدراسات الكيفية في الممارسة العيادية لا يشكل إلا نسبة ضئيلة مما ينشر في المجلات والدوريات العلمية.

وإننا نجد (Freud, 1925)، مؤسس النظرية التحليلية في علم النفس، استخدم منهج إدارة الحالة في صياغة نظرية التحليل النفسي، من خلال دراسة بعض من الحالات النفسية. واستخدم (Piaget, 1929) أيضاً الملاحظة المباشرة والمقابلة المتعمقة في صياغة نظرية النمو العقلي لدى الإنسان. واستخدم (Valliant, 1977) أيضاً أساليب المنهج الكيفي في صياغة نظرية النمو الذكوري (Masculine Development Theory).

ومن الدراسات التي تناولت قلة الدراسات الكيفية في مجال الممارسة العيادية دراسة (Ambert et al., 1995) حيث قاموا بمراجعة 527 مقالة علمية نشرت في مجلات الزواج والأسرة بين عامي 1989 – 1994، وأوضحت النتائج أن 10 مقالات فقط (أقل من 2%) استخدمت المنهج الكيفي مقارنة باستخدام المنهج الكمي.

وفي دراسة (Sexton, 1996) حيث قام بمراجعة 344 مقالة علمية حول الإرشاد – أحد ميادين الممارسة العيادية – بمختلف أنواعه منشورة بين عامي 1988 – 1994 أوضحت النتائج أن 5% من تلك الدراسات فقط استخدمت أحد أساليب المنهج الكيفي.

وفي دراسة (Kleist and Gompertz, 1997) حيث قاما بمراجعة المقالات المنشورة في مجلات الزواج والأسرة بين عامي 1994–1996، أوضحت النتائج أن 7 دراسات فقط استخدمت إحدى أدوات المنهج الكيفي.

وفي أحدث الدراسات قام (Berrios and Lucca, 2006) بمراجعة 593 مقالة منشورة في 4 مجلات علمية متخصصة في العلاج النفسي والإرشاد بين عامي 1997 – 2002، وأوضحت النتائج أن 98 مقالة فقط استخدمت أحد أساليب المنهج الكيفي.

كل هذه الدراسات تؤكد ندرة الدراسات الكيفية في مجال الخدمة الاجتماعية العيادية. والسؤال الذي يتبادر للذهن في هذا المقام: ما عوامل عزوف ممارسي الخدمة الاجتماعية العيادية عن تطبيق أساليب البحث الكيفي في الأبحاث المتعلقة بمجال الممارسة العيادية؟.

إن الاجابة المجردة عن مثل هذا التساؤل هي ضرب من المخاطرة غير المحسوبة؛ نظراً لتعدد الجوانب المتعلقة به. فهناك كثير من العوامل، منها ما يعود لطبيعة الظاهرة الإنسانية المتسمة بالتعقيد، ومنها ما يعود للممارس ذاته، ومنها ما يعود للمؤسسات التعليمية والأكاديمية، ومنها ما يعود إلى الثقافة السائدة في المجتمع، التي تتجه نحو لغة الأرقام (وهو ما يتحقق في المنهج الكمي) باعتبارها أكثر علمية ومصداقية لدى الكثير.

ولكن الباحث يقدم فيما يلي مجموعة من العوامل، يمكن أن تفسر عوامل ابتعاد ممارسي الخدمة الاجتماعية العيادية عن استخدام أساليب البحث الكيفي في مجال البحث العلمي:

1 – عدم الإلمام بكيفية إجراء البحوث الكيفية وتطبيقاتها: إن إجراء البحوث الكيفية يتطلب العديد من المهارات البحثية التي يجب على الباحث اكتسابها قبل الشروع في إجراء البحث. ومن هذه المهارات: مهارة الملاحظة، ومهارة إجراء المقابلة، ومهارة التحليل والتفسير، ومهارة النقد التحليلي وغيرها.

2 – عدم الإلمام بطبيعة الظاهرة الاجتماعية وخصوصيتها: إن للظاهرة الاجتماعية خصوصية متميزة، فهي، على نقيض الظاهرة الطبيعية، تتسم بالتغير المستمر والنسبية المطلقة. ومن هنا فالحكم بضرورة المساواة بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية في البحث العلمي يشوبه كثير من الاعتباطية (محمد الزعبي، 1991). فالظاهرة الاجتماعية يندر بل يكاد ينعدم فيها نمط التكرار المنتظم، كما أنه يصعب فصل عناصرها المعقدة بعضها عن بعض. ومن هنا فبحث الظاهرة الاجتماعية يتطلب منهجاً ينسجم مع هذه الخصوصية.

3 – الخوف من عدم تحقق الموضوعية في البحث الكيفي: يبتعد كثير من الباحثين عن استخدام البحث الكيفي خوفاً من عدم تحقيق الموضوعية التي تستخدم في مناهج البحث الكمي. ويشير (صلاح قنصوه، 1980) إلى أن الموضوعية العلمية موقف وحكم، ولا يمكن أن تكون امتناعاً عن اتخاذ موقف، أو توقفاً عن إصدار حكم، ويضيف: إن الموضوعية تعني التزام الموضوع المحكوم عليه. وعلى هذا، فالخوف من عدم تحقيق الموضوعية ينفيه خصوصية الظاهرة الاجتماعية وواقعها المتغير وتفاعل الأفراد معها.

4 – الخوف من عدم تعميم النتائج التي يتوصل إليها نتيجة للطبيعة البحثية في مناهج البحث الكيفي المتسمة بالتأملية وانغماس الباحث في الأحداث المرتبطة بالظاهرة المدروسة. بالإضافة إلى عدم انطباق معايير المنهجية البحثية المستخدمة في المنهج الكمي مثل مطابقة النظرية للملاحظات، والقابلية للتعميم، والثبات، والدقة والصرامة، وإمكانية التحقق من الصحة.

5 – الاعتقاد بأن مناهج البحث الكمية هي الكفيلة بتحقيق العلمية نتيجة لما توفره للباحث من قدرة على التحكم في أبعاد الدراسة التي يقوم بها. فالباحث في البحوث الكمية يسير وفق منهجية بحثية وخطوات إجرائية متوقعة مسبقاً، فهو ينطلق من أطر نظرية وتساؤلات بحثية يتوقع من خلالها النتائج التي يصل إليها. وفي مقابل ذلك، يشير (خالد حجر، 2003) إلى أن البحث الكيفي يتسم بالإبداع، حيث يتمثل في مقدرة الباحث على تجاوز المسلمات والتمكن من التأمل واكتشاف العلاقات والارتباطات والأسباب، وهذا يؤدي إلى الصياغة النظرية المتميزة.

6 – مناهج البحث الكيفي تستنزف من الباحث الوقت والجهد: إن القيام بالبحوث الكيفية يستلزم من الباحث كثيراً من الجهد والوقت نتيجة لمعايشته للواقع

المدروس لفترة زمنية قد تتسم بالطول. فالباحث بحاجة إلى تقديم فهم متعمق وتحليل منطقي وتفسير شمولي للظاهرة المدروسة وللمبحوثين. ونتيجة لذلك يتجه كثير من الباحثين في مجال الممارسة العيادية إلى الابتعاد عن البحوث الكيفية توفيراً للوقت والجهد.

تفعيل استخدام مناهج البحث الكيفي في دراسات الخدمة الاجتماعية العيادية:

إن طبيعة المشكلات النفسية والاجتماعية التي يواجهها العملاء تتسم بالتعقيد من خلال تعدد العوامل المسببة لها، ومن هنا تبدو الحاجة ماسة إلى الفهم المتعمق لهذه المشكلات وكيفية إيجاد أدوات بحثية ملائمة لطبيعتها تؤدي إلى تحليلها وتفسيرها وزيادة الوعي بتأثيرها.

إن تطوير الأساليب العلاجية التي تعتبر آليات ممارسة الخدمة الاجتماعية العيادية، يتطلب القيام بدراسات تتناول استخدام أدوات بحثية كيفية كالمقابلة والملاحظة ودراسة الحالة لتقديم فهم متعمق لكفاءة تلك الأساليب وفاعليتها في تقديم المساعدة الإنسانية مع الأخذ في الاعتبار السياق الثقافي والاجتماعي لمجتمع التطبيق (Corey, et al.,1996).

ونتيجة لندرة الدراسات الكيفية في مجال الخدمة الاجتماعية العيادية، فإن الحاجة ماسة إلى تفعيل استخدام منهج البحث الكيفي في الممارسة العيادية، ويمكن القيام بذلك – من وجهة نظر الباحث – من خلال ما يأتي:

1 – التدريب على استخدام أساليب البحث الكيفي: إن ممارسة البحث الكيفي يتطلب اكتساب العديد من المهارات البحثية، كمهارات إجراء المقابلة، والملاحظة، ودراسة الحالة، وجمع وتحليل وتفسير البيانات. ومن هنا فالحاجة ملحة لتدريب الباحثين والممارسين على تلك المهارات البحثية.

2 – إحداث التوازن بين مناهج البحث الكمي والكيفي عند صياغة الخطط والبرامج الدراسية: إن الخطط الدراسية على مستوى الدراسات الجامعية ومستوى الدراسات العليا يجب أن تحقق التوازن بين المقررات المقدمة لشقي مناهج البحث العلمي الكمي والكيفي. فمن الضروري للطالب الإلمام بمهارات البحث الكيفي والكمي واكتساب المهارات اللازمة لاستخدام أي منهما.

3 – تشجيع إجراء البحوث الكيفية في مجال مهن المساعدة الإنسانية ودعمها: إن المنح البحثية المقدمة من الجهات والمؤسسات المانحة يجب أن تشجع إجراء

البحوث الكيفية في مجال مهن المساعدة الإنسانية، والخدمة الاجتماعية العيادية واحدة من تلك المهن، وهذا كفيل بإثراء البحث الكيفي وتطويره.

4 – التقليل من خطورة الذاتية (subjectivity) لدى إجراء البحوث الكيفية: يجب زيادة الوعي لدى الباحثين والممارسين بأهمية إجراء البحوث الكيفية في مجال الممارسة العيادية نتيجة لطبيعة المشكلات الإنسانية التي يتعاملون معها وتعقيدها، وأهمية التعامل مع تلك المشكلات بكثير من الفهم المتعمق والدراسة الشاملة. كما أن الذاتية المرتبطة بالبحث الكيفي هي خاصية مميزة تزيد من قوة البحث الكيفي ولا تفقده العلمية.

5 – تحقيق التوازن فيما ينشر من بحوث كمية وكيفية في المجلات العلمية: إن إحداث التوازن بين ما ينشر في المجلات العلمية من دراسات وبحوث كمية وكيفية يشجع الباحثين والممارسين على تنفيذ الدراسات الكيفية، خاصة في المجلات التي تعنى بنشر الدراسات في مجال مهن المساعدة الإنسانية.

المراجع

إبراهيم عبد الرحمن رجب، (2003). **مناهج البحث في العلوم الاجتماعية**، الرياض: دار عالم الكتب.

جلال عبدالخالق، (1990). العمل مع الحالات الفردية: أسس ومبادئ، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.

حمدي منصور، (2003). **الخدمة الاجتماعية الإكلينيكية**. الرياض: مكتبة الرشد.

خالد أحمد حجر، (2003). معايير شروط الموضوعية والصدق والثبات في البحث الكيفي. **مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والاجتماعية والإنسانية**، المجلد 15، العدد الثاني: 132–153.

خيري خليل الجميلي، (2002). الأساس النظري في خدمة الفرد. المكتبة الجامعية، الإسكندرية.

رجاء محمود أبو علام.، (1999). **مناهج البحث في العلوم النفسية والتربوية**. القاهرة: دار النشر للجامعات.

صلاح قنصوه، (1980). الموضوعية في العلوم الاجتماعية. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

محمد أحمد الزعبي، (1991). **علم الاجتماع والبلدان النامية: مساهمة نقدية في تحديد موضوع ومهام علم الاجتماع العام وعلم اجتماع البلدان النامية**. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

محمد القرني، وعبد المنصف رشوان، (2004). **المداخل العلاجية المعاصرة في العمل مع الأفراد والأسر**. الرياض: مكتبة الرشد.

يعقوب الكندري، (2006). **طرق البحث الكمية والكيفية في مجال العلوم الاجتماعية والسلوكية**. الكويت: مجلس النشر العلمي.

Ambert, A. *et al.* (1995). Understanding and evaluating qualitative research. *Journal of Marriage and Family*, Vol 57: 879-893.

Baer, B. & Federico, R. (1978). *Educating the baccalaureate social worker*. Cambridge, MA: Ballinger.

Bartlett, H. (1970). *The common base of social work practice*. NASW: New York.

Berrios, R. & Lucca, N. (2006). Qualitative methodology in counseling research: Recent contributions and challenges for a New Century. *Journal of Counseling and Development,*Vol 84: 174-186.

Biestek, F. (1957). *The casework relationship*. Chicago: Loyola University Press.

Compton, B. & Galaway, B. (1994). *Social work processes*. Brooks/Cole Publishing Company, California.

Corey, G. (1996). *Theory and practice of counseling and psychotherapy*. New York: Brooks/Cole Publishing Company.

Denzin, N. & Lincoln. (2002). *The qualitative inquiry reader*. Sage Publications, London.

Denzin, N. (1978). *The research art: A theoretical introduction to sociological methods*. (2nd ed.). McGraw-Hill, New York.

Freud, S. (1925). *Collected papers*. London: Hogarth.

Gilgun, J. (1994). Hand into glove: The grounded theory approach and social work practice research. In E. Sherman & W. Reid. *Qualitative research in social work*. Columbia University Press, New York.

Glodstein, E. (1980). Knowledge base of clinical social work. *Social work*, Vol. 25, n. 3.

Goldman, L. (1989). Moving counseling research into the 21st Century. *The Counseling Psychologist*, Vol 17: 81-85.

Gordon, W. (1969). *Basic concepts for an integrative and generative conception of social work*. CSWE, New York.

Guba, E. & Lincoln, Y. (1981). *Effective evaluation*. San Francisco: Jossey-Bass.

Haviland, W. (1994). *Anthropology*. Harcourt Brace College Publishers, Fort Worth.

Kleist. D. & Gompertz, K. (1997). Current use of qualitative research methodology in couples and family counseling. *Family Journal*, Vol 5: 137-145.

Levi-Strauss, C. (1963). *Structural anthropology*. New York: Basic Books.

Lorenz, K. (1966). *On Aggression*. London: Methuen.

Nachmias, C. & Nachmias, D. (1992). *Research methods in the social sciences*. 4th ed. New York: St. Martin.

NASW. (1980). *Code of ethics of the national association of social workers*. NASW, Silver Spring, MD.

Padgett, D. (1998). *Qualitative methods in wocial work research*. London: Sage Publications.

Piaget, J. (1929). *The child conception of the world*. New York: Harcourt Brace.

Riessman, C. (1994). *Qualitative studies in social work research*. London: Sage Publications.

Schein, E. (1987). *The clinical perspective in fieldwork*. CA: Newbury Park.

Schwartz, W. (1961). Social worker in the group. Social welfare forum. New York: Columbia University Press.

Sexton, T. (1996). The relevance of counseling outcome research: Current trends and practical implications. *Journal of counseling & family*, Vol 74: 590-600.

Singer, M. (1989). The Coming of age of critical medical anthropology. *Social science and Medicine*, Vol 28:. 1193-1203.

Strauss, A. & Glasser, B. (1967). The discovery of grounded theory: Strategies for qualitative research. New York: Aldine de Gruyter.

Tinbergen, N. (1951). *The study of instinct*. London: Oxford University press.

Valliant, G. (1977). *Adaptation of life*. Boston: Little Brown.

Weiss, R. (1994). Learning from Strangers: *The art and methods of qualitative interview studies*. New York: Free Press.

White, R. (1959). Motivation reconsidered: the concept of competence. *Psychological review*, Vol 66, n.5: 297-334.

قدم في: فبراير 2006

أجيز في: مارس 2009

Qualitative Research and Clinical Social Work

Mohammed M. Al-Garni*

The rapid concern of qualitative research methods in the helping professions practice has been marked due to their effectiveness in collecting, analyzing, and interpreting data to attain desirable change. Case studies, focus groups, grounded theory, and content analysis are among qualitative methods focused on understanding social phenomena. The unique characteristics of social phenomena and how the researcher relates to them thoughtfully, behaviorally, and psychologically entail using appropriate research methods that are relevant to the nature of this relationship and that achieve objectivity when studying human behaviors. This study tries to discuss the similarities and differences between qualitative research methods and clinical social work based on goals, assumptions, methods, and researcher roles. The findings of the study showed the necessity of using qualitative research in clinical social work practice to ensure the effectiveness of outcomes. In addition, the study offers some suggestions about how to activate them using qualitative research in social work practice.

Key words: Qualitative research, Clinical social work.

* Social Work Department, Umm Al-Qura University, Kingdom of Saudi Arabia.